المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

عشر سنـوات على احتلال العراق

١٠ – ١١ نيسان / ابريل ٢٠١٣

صورة العرب عند الغرب في ضوء التّداعيات النّاشئة عن غزو العراق

لقاء مكي

هذه نسخة أولية للورقة لأغراض العرض في المؤتمر، ولا يجوز استخدامها أو الاقتباس منها لحين نشرها في صيغتها النهائي

صورة العرب عند الغرب في ضوء التّداعيات النّاشئة عن غزو العراق

جميع الحقوق محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات © ٢٠١٣

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات مؤسّسة بحثيّة عربيّة للعلوم الاجتماعيّة والعلوم الاجتماعيّة التطبيقيّة والتّاريخ الإقليميّ والقضايا الجيوستراتيجية. وإضافة إلى كونه مركز أبحاثٍ فهو يولي اهتمامًا لدراسة السّياسات ونقدها وتقديم البدائل، سواء كانت سياسات عربيّة أو سياسات دوليّة تجاه المنطقة العربيّة، وسواء كانت سياسات حكوميّة، أو سياسات مؤسّسات وأحزاب وهيئات.
يعالج المركز قضايا المجتمعات والدول العربيّة بأدوات العلوم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والتاريخيّة، وبمقاربات ومنهجيّات تكامليّة عابرة للتّخصصات. وينطلق من افتراض وجود أمن قوميّ وإنسانيّ عربيّ، ومن وجود سماتٍ ومصالح مشتركة، وإمكانيّة تطوير اقتصاد عربيّ، ويعمل على صوغ هذه الخطط وتحقيقها، كما يطرحها كبرامجَ وخططٍ من خلال عمله البحثيّ ومجمل إنتاجه.

مسودة

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات
شارع رقم: ٨٢٦ – منطقة ٦٦ – الدفنة
ص. ب: ١٠٢٧٧ – الدّوحة، قطر
هاتف: ٤٤١٩٩٧٧٧ ٩٧٤+ | فاكس: ٤٤٨٣١٦٥١ ٩٧٤+
www.dohainstitute.org

١

على الرّغم من أنّ اصطلاح (Stereotype) لم يكن قد ظهر قبل القرن العشرين، فإنّ التعامل مع (الآخر) بموجب الأحكام المسبقة وأنماط الوعي الثابتة والسطحية تجاهه، كانت قد بدأت قبل ذلك بزمنٍ طويلٍ، وتحديدا منذ أنْ بدأ التواصل بين المجموعات البشرية، فتعاملت الحضارات المتتالية والمجموعات السكّانية على مرّ التاريخ مع بعضها البعض بموجب أحكامٍ مسبقةٍ عامّةٍ ذات مصادرَ مختلفةٍ ومتنوّعةٍ.

وحينما استخدم والتر ليبمان هذا المصطلح لأول مرّةٍ في كتابه (الرأي العام) عام ١٩٢٢، فإنّه كان في واقع الأمر يؤسّس لفرعٍ جديدٍ للدراسات الاجتماعية ومن ثمّ الإعلامية، يهتمّ باكتشاف آلياتٍ تشكّل صورة (الآخر) في أذهاننا، وتأثير هذه الصورة على توجيه الوعي وبالتالي السلوك تجاه ذلك الآخر، أيًّا كان.

واستعار ليبمان هذا المصطلح من عالم الطباعة الذي يستخدم لوصف الصفائح المعدنية التي تجري طباعة الحروف عليها بطريقة الصبّ الحراري، فتكون ثابتةً لا يمكن محوها، وهي استعارة لها مغزاها، حيث أدرك ليبمان بصورةٍ مبكّرةٍ أنّ الأمر يتعلّق بمفاهيمَ يجري (صبّها) في الوعي بطريقةٍ يصعب أو ربّما يستحيل محوها.

واتّجه قصد ليبمان في مصطلحه الذي اتّفق عددٌ من الكتّاب الأميركيّين العرب مثل إدوارد سعيد وهشام شرابي وإدموند غريب على ترجمته بمصطلحٍ عربيٍ مقابلٍ هو (الصورة النمطية)، إلى القول إنّ" الشعور الوحيد الذي يحمله أيّ شخصٍ حول حدثٍ لم يجربه هو شعورٌ نابعٌ من تصوره الذهني للحدث، وأنّ ما يقوم به لا يعتمد على معرفةٍ معينةٍ أو مباشرةٍ بل على صورةٍ صنعها أو أُعطيت له".

وخلال العقود اللاحقة خضع المفهوم لكثيرٍ من الدراسات والتجارب، لكنّ الرؤية العامّة لم تخرج عن الإطار الذي حدّده ليبمان، وإنْ كان الباحثون قد أجابوا على كثيرٍ من التساؤلات الخاصّة بدوافع وأصول تشكّل الصور النمطية.

يعرّف إليوت الصورة النمطية بأنّها "اعتقادٌ مبالغٌ فيه يرتبط بفئةٍ، وظيفته تبرير السلوك إزاء تلك الفئة"، ويعرفها جيكر بأنّها "رأيٌ ثابتٌ ذو وظيفةٍ تعميميةٍ، يشير إلى فئةٍ من الناس (سكّانٍ محلّيين أو عنصرٍ أو جماعةٍ معينةٍ.. إلخ) الذين يجدهم متشابهين ضمن اعتبارٍ معيّنٍ".

وتشير التعريفات المختلفة إلى جملةٍ من الحقائق الأساسية المرتبطة بالمفهوم يمكن إجمالها في ما يلي :

- الصور النمطية ليست عقلانيةً وغير موضوعيةٍ، بل تستند إلى انطباعاتٍ ذات جذورٍ عاطفيةٍ وتصوراتٍ خياليةٍ جمعيةٍ، وقد يكون بعضها مستندًا لحملاتٍ دعائيةٍ مقصودةٍ ومبرمجةٍ أو نمطٍ من الأساطير الاجتماعية وحتى الإشاعات، وكلّ ذلك، يتعامل مع الغرائز العاطفية البدائية للإنسان وليس مع تفكيره العقلاني المنطقي والموضوعي.

- هي محاولةٌ لتبسيط التفاصيل المعقّدة لسمات (الآخر)، أيًّا كان، وهي بلجوئها إلى تعميم الانطباع على جميع أفراد الفئة المستهدفة سواءً كانوا شعبًا أم جماعةً عرقيةً، أم دينية أمْ محليةً، فإنّ الصور النمطية (تعفي) معتنقيها من متاعب مناقشة صفات (الآخر) وعزل إيجابياته عن سلبياته.

إنّ الصور هنا تقدم حلًّا سهلًا وسريعًا بتعميم انطباعٍ مّا حول الآخر، وتأسيس جميع الأحكام اللاحقة حوله على ذلك الانطباع.

- تقود الصورة النمطية في كثيرٍ من الأحيان إلى التعصّب (Prejudice)، الذي قد يتّخذ صورة الحكم السلبي التعميمي على جماعةٍ أخرى، وهنا تكون الصور النمطية المكون المعرفي للاتّجاه التعصبي. ومشكلة التعصب أنّه يدفع بمعتنقه إلى تجاوز حدود استخدام الصورة النمطية إنْ ورد ذكر (الآخر)، أو اقتضى الأمر التعامل معه، لكنّ التعصّب يدفع المرء إلى اتّخاذ خطوةٍ باتّجاهٍ معينٍ يحقّق للشخصية المتعصّبة قدرًا من الرضا، سواءً بموقفٍ مع طرفٍ يحظى بتأييد (متعصب)، أو بموقفٍ أو سلوكٍ سلبيٍ تجاه طرفٍ يحمل المتعصّب حوله أفكارًا سيئةً. ومثل هذا الأمر قد نجده في انتحار شخصٍ ما لخسارة فريقه الرياضي، أو انتحار آخرَ، لقتل من يرى أنّه عدو يستحق الموت.

- يتجلّى حضور الصور النمطية حينما يكون المرء على تماسٍّ مباشرٍ مع (الآخر)، حيث يمكن توقع أحد أمرين:

١- الصورة النمطية تقود إلى توقّع قيام أعضاء المجموعة (المنمطة) بسلوكٍ معيّنٍ حسب ما تؤسّسه أو تفترضه مقتضيات الصورة حوله، من غير حسابٍ لاحتمالات تميّز فردٍ عن آخرَ، ومثل هذا التوقّع قد يحمل الطرف الذي يعتنق الصورة على (استباقه) بسلوكٍ يماثل التصور المسبق، الذي قد لا يكون صحيحًا في معظم الحالات.

٢- إنّ التعصّب الناجم عن تبنّي صورةٍ نمطيةٍ سلبيةٍ تجاه (الآخر) تقود إلى ما يسمّى (العزو الخاطئ)، وهو أنْ تتولّى (صورة الآخر) في أذهاننا عملية عزو جميع الصفات الإيجابية أو الملامح الإيجابية للعلاقة المشتركة، إلى (أنفسنا)، فيما يجري عزو الأخطاء والمشكلات الناجمة عن هذه العلاقة إلى (الآخر)، وذلك مهما كانت الوقائع على الأرض.

٢

لا يمكن الجزم بنيات توماس أديسون، حينما أظهر ١٨٩٧ باختراعه الجديد (الكينسكوب) لقطةً قصيرةً لامرأةٍ (عربيةٍ) بملابسَ فاضحةٍ، وهي ترقص لمجموعةٍ من الرجال، فهل كان أديسون يتعمد إهانة العرب والمسلمين حينما أسمى فيلمه القصير ذاك (رقصة فاطمة)، أمْ أنّه أراد مجرّد مشهدٍ مثيرٍ للتسلية ربّما ينسجم مع فهم الناس أو مخيالهم للشرق الذي عرفوه من خلال قصص "ألف ليلةٍ وليلةٍ" التي راجت عالميًا وأصبحت واحدةً من أهمّ مصادر الوعي الأجنبي بالعرب والمسلمين وتاريخهم.

وعلى الرغم من أنّ ذلك الفيلم المبكّر، كان هو وما لحقه من أعمالٍ فنيةٍ وأدبيةٍ، سببًا في تكريس ما بات يوصف (البطن العارية) التي أصبحت إحدى الصور الذهنية المرتبطة بالعرب في المخيال الغربي، إلّا أنّه من غير المؤكّد أنّ ذلك كان بقصديةٍ تآمريةٍ ضد العرب بل ربّما يكون الأقرب للمنطق، أنّ بعض ما تنقله وسائل الإعلام وأحيانًا بعض الأعمال الفنية هو نتاجٌ للمخيال الاجتماعي وليس العكس.

ولكنْ كيف نشأ مثل هذا المخيال ولماذا راكم كلّ هذه الصور السلبية؟ فهذا أمرٌ آخرُ أهمّ ما فيه، أنّ الأمر يرتبط بصورةٍ خاصّةٍ بالنظرة للإسلام قبل العروبة، وهو ما تشكل بصورةٍ مبكّرةٍ، وتحديدًا منذ زمن الفتوحات التي نقلتها الكنيسة لجمهورها بطريقتها، وصولًا للحروب الصليبية التي بنت جدارًا عاليًا من سوء الفهم، حتّى إذا ما وصلنا للمرحلة الاستعمارية كان الغربي مشبعًا

بمفاهيمَ مغروسةٍ في عقله جيلًا بعد جيلٍ، تقرن العرب بالإسلام، والإسلام بالعرب، ويتكّئ في مقاربته مع العرب والمسلمين على أساس قناعاته التي استمدها من خزينٍ منمّط للصور عمره أكثر من ألف عامٍ.

لقد بدأ التواصل الغربي مع العرب في المرحلة الاستعمارية، وذاكرة المجتمعات الغربية تختزل صورة العربي في أغلب الأحيان "في الإنسان الذي لا يرتبط بالحياة البشرية بغير الخيمة، والاجتماعية بغير القبيلة، وروابط القرابة، يترحّل على أرضٍ قاحلةٍ، وسيلته في ذلك الجمل، ومجاله قفرٌ مكنوزٌ بالذهب الأسود".[١]

وعلى الرغم من أنّ هذه (الأنماط) تلاشت حينما وجد المستعمرون أنّ المدن العربية الكبيرة ليست كما تخيّلوا، إلّا أنّ المخيال الغربي ظلّ يوالد أنماطًا جديدةً للصور تتوافق مع طبيعة كلّ مرحلةٍ وتستفيد من الأحداث، ومن خزين سوء الفهم التاريخي بين الحضارتين.

وتذكر مارلين نصر في دراستها عن "صورة العرب والمسلمين في الكتب المدرسية الفرنسية" أنّ قوالبَ معاديةً للعرب كانت سائدةً خلال العصر الاستعماري وما سبقه اندثرت أو في طريقها للاندثار، ولم تعد تمثّل جزءًا أساسيًا من سياقات الصورة النمطية للعرب، مثل "العرب متأخّرون وبدائيون" أو "العرب متعصّبون"، أو "العرب لصوصٌ نهّابون"، كما أنّ قوالبَ أخرى لا تزال محلّ خلافٍ بين الغربيين أنفسهم، حيث يتبنّاها بعضهم ويرفضها بعضٌ آخرُ، مثل "الإسلام يقوم على التعصّب"، "الإسلام متسامحٌ، ولكن في حدودٍ معينةٍ"، "العرب يؤمنون بالخرافات وقدريون"، "العرب خوّافون وجبناءُ"، "العرب متنقّلون لا أراضي لهم"، "العربي بطيءٌ وكسولٌ وضعيف الإنتاج".[٢]

ولكنْ مقابل ذلك، فإنّ هناك قوالبَ راسخةً جرى تركيزها من خلال الكتب الدراسية الفرنسية، وتقديمها على أنّها حقائقُ مطلقةٌ، منها تقديم العرب على أنّهم "متسوّلون وفقراءُ"، وأنّهم في أية حالٍ بمرتبة أدنى من الفرنسيّين، كما أنّ العرب مهزومون دومًا (أمام الفرنسيين أو الإسرائيليّين،

---

[١] **صورة الآخر، العربي ناظرا ومنظورا إليه** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩)، ص٤٣٣.

[٢] المرجع السابق، ص ٤٨٤.

لا فرق)، حتى أنّ تلك الكتب تهمل انتصاراتٍ عربيةٍ نادرةٍ مثل نصر صلاح الدين في الحروب الصليبية أو ما حدث بحرب السويس ١٩٥٦، أو أنْ يجري تقديمها على أنّها هزيمةٌ للعرب.[٣]

ولا يختلف الأمر كثيرًا في سائر أنحاء الغرب، ففي الولايات المتحدة، سادت قوالبُ ذهنيةٌ عن العرب وأصبحت جزءًا من الفولكلور الأميركي على حد وصف أستاذ الاتّصال الجماهيري في جامعة جنوب إيلنويز جاك شاهين، الذي أشار إلى أنّ العرب يظهرون في الثقافة الشعبية الأميركية، إمّا كأثرياء من أصحاب المليارات، أو مفجّري قنابلَ، أو راقصاتٍ شبه عارياتٍ.

وعلى الرغم من أنّ الولايات المتّحدة لم تكن طرفًا في الحملات الاستعمارية أوائل القرن العشرين، وبالتالي فإنّها لم تخض صدامًا حضاريًا مع العرب كما حدث مع فرنسا وبريطانيا وإيطاليا بصورةٍ خاصّةٍ، فإنّ ظهور الصراع العربي الإسرائيلي، وتحديد بوصلة الإستراتيجية الأميركية على أساس الانحياز لإسرائيل، ونشاط اللوبي الصهيوني في الولايات المتّحدة، كانت عوامل أدّت لاستيراد القوالب الجاهزة التي كانت مختزنةً في أوروبا أساسًا ، وجرى تمريرها بسهولةٍ في الفكر ووسائل الإعلام والنتاج الفني بالولايات المتّحدة، ولا سيما أنّ الأميركيّين لم يكونوا بعيدين تمامًا عن استيعاب مثل هذه الأنماط، بعد أنْ كانوا أصلًا ينظرون للعرب من وحي ما عرضته لهم السينما في هوليوود.

وخلال وقتٍ قصيرٍ نسبيًا تمكّنت وسائل الإعلام والسينما من تكريس الصورة السلبية عن العرب "حتّى أصبح الأميركيون العرب الجماعة العرقية الوحيدة التي يحس الأميركيون أنّ بوسعهم مهاجمتها، والاستهزاء بها دون خوفٍ أو أذًى أو عقابٍ"[٤].

ومع أنّ مثل هذه الرؤية باتت تشكّل أساس توقّعات العرب لصورتهم لدى (الآخر) الغربي، إلّا أنّ البعض يعتقد أنّ غالبية الدراسات حول هذه الظاهرة، تناولت فقط الجانب المعتم من التعامل الغربي، بما في ذلك تصوره للعربي والمسلم، "وأخذت من النظرات الغربية أكثرها "تشويهًا"

مسودة

---

٣ المرجع السابق، ص٤٨٦.

٤ ميخائيل سليمان، **صورة العرب في عقول الأميركيين**، ترجمة عطا عبد الوهاب (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧)، ص٢٠٢.

لصورة العربي، لذلك لا توجد صورةٌ إيجابيةٌ عن العرب"[٥] في مجمل الدراسات التي تناولت صورة العربي في المخيال الغربي، وهذا الرأي ربّما تعزّزه حقيقة عدم الاهتمام بصورةٍ مناسبةٍ بجهود كتّابٍ وصحفيّين وناشطين غربيّين تعاملوا مع العرب بطريقةٍ إيجابيةٍ متحرّرة من الأنماط التقليدية، وهؤلاء على ندرتهم يمثّلون خرقًا مهمًّا للوعي المنمّط ضدّ العرب، لا سيما مع أهمية بعضهم مثل نعوم تشومسكي وروجيه غارودي وروبرت فيسك، بل إنّ ناشطةً أميركيةً شابّةً متعاطفةً مع الفلسطينيّين هي راشيل كوري دفعت حياتها ثمنًا لتأييدها للعرب، حيث قتلت تحت بلدوزر إسرائيلي عام ٢٠٠٣، وهي تحاول منعه من تهديم مبانٍ فلسطينيةٍ مدنية في رفح بقطاع غزة.

٣

لم تبتعد عملية الإعداد لغزو العراق عن دائرة الانطباعات المتكرّسة في الولايات المتّحدة عن هذا البلد سواءً بوصفه جزءًا من منظومةٍ عربيةٍ وإسلاميةٍ، أم بالأنماط التي أُلصقت به وبقيادته قبل الغزو بفترةٍ طويلةٍ.

لقد كانت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ فرصةً لتعزيز الصور السلبية حول العرب والمسلمين في الغرب، من خلال اختزالهم بسمة "الإرهاب" بكلّ تجلياتها التي تتداعى للمخيلة الغربية، وهكذا وعلى مبدإ بافلوف، لم يعد الغربي، بحاجةٍ إلى التذكير في كلّ مرّةٍ بما أُلصق بالعربي والمسلم من صورٍ متّصلةٍ بـ"الإرهاب"، مثل الاستعداد لقتل المدنيين الأبرياء، والعدوانية المفرطة، والعقلية التآمرية، وعدم احترام الروح الإنسانية، وانتهاك المبادئ الأخلاقية، ...إلخ، بل أصبح مجرّد رؤية شخصٍ عربيٍ أو مسلمٍ أو ذكره كافيًا لاستدعاء هذه الصور، ولا سيما إن ارتبطت صورة هذا الشخص بلحيةٍ طويلةٍ، أو بلباسٍ تقليديٍ لشعوبٍ عربيةٍ وإسلاميةٍ.

إنّ الجرح الغائر الذي حفرته هجمات ١١ سبتمبر، في جوهر الإحساس الأميركي بالأمن المطلق، والشعور بالقوة المهيمنة، كان كبيرًا ومؤثّرًا في صياغة ردّ فعلٍ عنيفٍ وحادٍّ اختار موجّهو الرأي العام في الولايات المتحدة، أنْ يكون مركّزا على العرب والمسلمين، مستفيدين في

مسودة

٥- المرجع السابق، ص ٢٧.

ذلك من خزينٍ إدراكيٍ قديمٍ، أمكن استدعاؤه على الفور، ليتوجه كل اللوم في ما حدث إلى العرب والمسلمين، بدلًا من محاسبة السلطات الأميركية التي فشلت في حماية شعبها.

وإذا كانت إدارة الرئيس الأميركي جورج بوش قد اختزلت كل العالم الإسلامي في أفغانستان وحركة طالبان الحاكمة آنذاك، لتوجه لها انتقامها، فإنّ هذه الإدارة اختارت العراق هدفًا تاليًا، بعد أنْ جرى ربطه بهجمات ١١ سبتمبر، من خلال ادّعاء علاقة قيادته بتنظيم القاعدة.

لقد جرى ربط العراق بهجمات سبتمبر، حتى قبل أنْ تُتّهم القاعدة به، ويذكر بوب وودوارد في هذا الصدد، أنّه " بعد ظهر يوم ١١ سبتمبر، وبينما كان الدخان والتراب يغطيان غرفة العمليات في البنتاغون، سأل وزير الدفاع في إدارة الرئيس بوش دونالد رامسفيلد، فريقه، عن إمكانية ملاحقة العراق، بوصفه المتسبّب في هجمات ذلك اليوم"(٦).

وبعد أربعة أيامٍ من تلك الهجمات، وبينما كان بوش يدرس مع فريقه للأمن القومي في كامب ديفيد طريقة الردّ، بعد انكشاف مسؤولية تنظيم القاعدة، "قدم رامسفيلد (ونائبه) وولفويتز ثلاثة أهداف في الحرب على الإرهاب، هي: القاعدة، حركة طالبان بأفغانستان، والعراق"(٧)

وقد طُرح اسم العراق، هدفًا محتملًا للانتقام، برغم عدم توفر أيّ دليلٍ على صلته بهجمات سبتمبر، حتى أنّ شخصياتٍ مهمّةً في الإدارة، حضرت اجتماع كامب ديفيد، مثل وزير الخارجية كولن باول ورئيس فريق موظفي البيت الأبيض أندرو كارد ورئيس الاستخبارات المركزية جون تينيت رأوا أنّ العراق لا ينبغي أنْ يكون هدفًا للرد، مع عدم توفر أيّ دليلٍ على صلته بالهجمات.(٨)

وقبل ذلك، وفي مطلع العام ٢٠٠١، كان نائب الرئيس المنتخب جورج بوش، قد أرسل لوزير الدفاع المنصرف وليم كوهين، طالبًا "إحاطة الرئيس المنتخب ببعض الأمور" قائلًا "إنّه يريد

مسودة

---

[6] Bob Woodward, *Plane of Attack*, (New York: Simon and Schuster , 2004), p24.

[7] Thomas E. Ricks, *Fiasco-The American Military Adventure in Iraq*, (New York: Penguin Books, 2007), p30

[8] Woodward, Ibid, p25

مناقشات جادّةً حول العراق".[٩]، بل إنّ وزير الخزانة السابق بول أونيل قال في يناير ٢٠٠٤، إنّ بوش كان راغبًا في إيجاد ذريعةٍ لاجتياح العراق، منذ اجتماعه الأول مع إدارته في يناير ٢٠٠١، أيْ قبل أحداث سبتمبر بثمانية أشهرٍ، ويؤكّد أونيل أنّ بوش كان واضحًا في رغبته هذه وهو اكتفى بأنْ يقول للحاضرين "توصّلوا إلى طريقةٍ لكي نقوم بذلك"[١٠].

ومن غير حاجةٍ للعودة إلى سنوات التسعينات، وما شهدته من إجراءاتٍ أميركيةٍ رسميةٍ للإطاحة بالقيادة العراقية، بما في ذلك "قانون تحرير العراق" الذي أصدره الكونغرس عام ١٩٩٨، فإنّ ما يهمّنا هنا هو التشديد على أنّ استهداف العراق ليس له رابطٌ واضحٌ بمجمل الاستهداف الغربي القيمي للعرب والمسلمين، بمعنى أنّه ليس من الواقعي إرجاع العداوة الأميركية للعراق، إلى مجرّد الانطباعات الغربية العامّة ضدّ العرب.

لقد كان العراق هدفًا بحدّ ذاته، ولا سيما بالنسبة لليمين المحافظ في الولايات المتّحدة، سواءً قبل أنْ يصل إلى السلطة في واشنطن مع إدارة بوش الابن، أو بعد ذلك، لكن، وسواءً كان وراء هذا الاستهداف المباشر، اعتبار العراق بلدًا "متمرّدًا" أو أسبابٌ أخرى، تعود للطبيعة الإستراتيجية الحاكمة للعراق في المنطقة، أو لخطره الدائم على إسرائيل، فإن تسويغ هذا العداء والاستهداف، وتسويقه أميركيًا وغربيًا، استند إلى مرجعيات الصورة النمطية حول العرب والمسلمين، بوصفه السبيل الأسهل لإقناع الرأي العامّ الغربي بخطورة هذا البلد وبالتالي مشروعية استهدافه بالحرب.

واستخدمت الدعاية الأميركية المبرمجة ضد العراق، ثلاثة مرتكزاتٍ أساسيةٍ، بصورةٍ منفردةٍ ومتتاليةٍ وأحيانًا جماعيةً، وهي: صلة العراق بتنظيم القاعدة، حيازته لأسلحة الدمار الشامل وإمكانية تقديمها لـ"الإرهابيين" ، واستبداد النظام وارتكابه جرائم ضدّ شعبه وضدّ دول المنطقة.

ويمكن ملاحظة أنّ مثل هذه الاتّهامات (أو حتى سواها) هي في المجمل سماتٌ (ممكنةٌ) لنظمٍ سياسيةٍ (أو حتى لشعوبٍ)، طالما تردّد في المخيال الغربي أنّها (متعصّبةٌ، بدائيةٌ، مفجّرةٌ للقنابل، لا تحترم الإنسانية، تمارس الغزو والنهب، ... إلخ)، وهكذا باتت عملية تسويق فكرة مشروعية

مسودة

---

[9] Ibid, p9.

[١٠] جايمس بوفارد، **خيانة بوش**، ترجمة: مركز التعريب والبرمجة، (بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٦)، ص٣٦٢.

استهداف (نظامٍ فاسدٍ وخطيرٍ) أكثرَ سهولةً، من خلال إقرانه بتهمٍ تستدعي على الفور كلّ القيم السلبية حول العرب والمسلمين المختزَنة في الذاكرة الجمعية الغربية والأميركية بصورةٍ خاصّةٍ.

لقد كانت الاتّهامات التي ألصقت بالعراق يمكن أنْ تصدّقها غالبية الشعب الأميركي، بسبب وجود خلفياتٍ لصورةٍ نمطيةٍ سيئةٍ حول مجمل الشعوب والأنظمة العربية والإسلامية، وكذلك حول حكامها، فإذا ما جاء هذا السيل الدعائي في خضمّ شعور أميركيٍ عارمٍ بالخوف والغضب والرغبة في الانتقام بعد هجمات سبتمبر، فإنّ الأمر سيتجاوز حدود التلقين الدعائي الذي خبرته المؤسّسات الأميركية الحاكمة والمتحكّمة في الرأي العام، إلى إرادةٍ جمعيةٍ عامّةٍ باستهداف كيانٍ واضحٍ يمكن النيل منه لإعادة الثقة للهيبة الأميركية، وكان هذا الكيان هو العراق، الذي جسّده صدّام حسين.

لقد كان المحور الأساسي في مجمل عملية الحشد للحرب ضدّ العراق بعد هجمات سبتمبر هو موضوع "الحرب على الإرهاب"، لكنّ هذه الحرب لم تكن قد بدأت في واقع الأمر في يوم ١١ سبتمبر /أيلول ٢٠٠١، بل إنّها سبقت ذلك التاريخ بنحو عشرين عامًا، منذ عهد الرئيس ريغان، "الذي جاء إلى السلطة معلنًا أنّ الحرب على الإرهاب ستكون جوهر السياسة الخارجية الأميركية، وندّد بما أسماه (وباء الإرهاب الشرير)، وكان التركيز على الإرهاب الذي ترعاه الدول في العالم الإسلامي وكذلك في أميركا الوسطى"[١١].

وهكذا فإنّ هذا (الشعار)، كان في واقع الأمر أيقونةً دعائيةً كان يجري استدعاؤها بانتظامٍ، كلّما شعرت المؤسّسة الأميركية الحاكمة أنّها بحاجةٍ إلى (حشد) الرأي العامّ باتّجاهٍ معيّنٍ، وهو ما يفضّل تشومسكي وصفه بـ"القطيع الضالّ"، الذي ينبغي إخافته من الأعداء، على الدوام ليُشغل عن مشكلاته الداخلية الحقيقية، وهكذا وبعد "هتلر واليهود والغجر والروس، أصبح الإرهاب العالمي، وتهريب المخدّرات، والمجانين العرب، وصدّام حسين أو هتلر الجديد الذي سيغزو العالم، كان لزامًا عليهم الإتيان بالواحد تلو الآخر لإخافة الناس وإرهابهم حتى يعيشوا في ذعرٍ

مسودة

---

[١١] نعوم تشومكسي، **السيطرة على الإعلام، الإنجازات الهائلة للبروباغاندا**، تعريب: أميمية عبد اللطيف (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣)، ص٣٨.

(...)، وفي الحصيلة فهناك دائمًا هجومٌ أيديولوجيّ يؤدّي في النهاية إلى خلق وحشٍ وهميٍّ تعقبه حملاتٌ للتخلّص من هذا الوحش"[١٢].

لقد جرت تهيئة الرأي العامّ لغزو العراق في هذا المناخ، من غير أنْ يجري تقديم أيّ دليلٍ يشير إلى علاقته بما جرى في ١١ سبتمبر، ففي النهاية كانت إدارة بوش بحاجةٍ إلى (كيانٍ) واضحٍ يكون مجسّدًا بدولةٍ وحاكمٍ يمكن الوصول إليه، والانتقام منه، بعد استعادة ما رُسم حوله من صورٍ سلبيةٍ، من غير عواقبَ أو عراقيلَ حقيقيةٍ، بدلًا من شبح يتخفّى في الجبال اسمه أسامة بن لادن.

كانت إدارة بوش بحاجةٍ إلى (نصرٍ) سريعٍ ومرئيٍ تنقله شاشات التلفزيون ويُرضي الرأي العامّ المتعطّش للانتقام، ويمنح الجمهوريّين فرصًا انتخابيةً في التجديد النصفي للكونغرس عام ٢٠٠٢، كما يعزّز فرص بوش في الفوز بولايةٍ ثانيةٍ. وهكذا اجتمعت كلّ هذه العوامل مع ما وجده المحافظون الجدد من فرصةٍ سانحةٍ لاستهداف العراق، فكان الغزو بلا عراقيلَ حقيقيةٍ سياسيًا أو أخلاقيًا.

٤

إذا كانت الصور النمطية السلبية للعرب والمسلمين قد أسهمت في تهيئة المناخ لغزو العراق، فإنّها رسمت أيضًا نمط إدارته بعد الغزو، وحدّدت بصورة أو بأخرى، فهم إدارة الاحتلال وجنوده للعراق وبنائه الاجتماعي.

ولقد كانت الصورة النمطية السائدة عن العرب "النهّابين"، متجسّدةً في طريقة تعاطي وسائل الإعلام الأميركية مع حالات الفوضى التي سادت العراق، ولاسيما بغداد، في الأيام الأولى للاحتلال، فقد "تحوّلت وسائل الإعلام الدولية إلى التغطية الدائمة لأعمال النهب (...)، وبدا كما لو أنّ أطقم الكاميرات غيروا اتّجاههم من تصوير الدبابات الأميركية المنتصرة، إلى التصوير المتواصل للناهبين وهم، يدمّرون المباني الحكومية ويحملون الطاولات والكراسي والثريات البلورية

مسودة

[١٢] المصدر السابق، ص٢٤.

والزهريات على ظهورهم. وكانت الشبكات التلفزيونية المتنافسة المتلهفة على المشاهد التي تشدّ الانتباه مسرورةً بما يبثّه مراسلوها عن الفوضى في شوارع بغداد"[١٣].

وعلى الرغم من أنّ هذه الصور لم تعجب وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد[١٤]، بسبب ما تعنيه من فشل لإدارة الاحتلال في السيطرة على الأوضاع في العراق، إلّا أنّها في الواقع كانت مادّةً إعلاميةً من الصعب على وسائل الإعلام الأميركية تجاوزها، بسبب ما تحقّقه من نسبة مشاهدةٍ عاليةٍ، تستند في الأساس إلى التوافق بين مخيلة المشاهد المسبقة عن العراقيّين (العرب والمسلمين)، وبين ما يشاهده أمامه من صورٍ حيةٍ، وذلك دون أنْ يسأل نفسه بالطبع عن الأسباب التي خلقت هذه الفوضى وعمليات النهب.

لقد كانت تلك الصور في الواقع تكريسٌ لواقعٍ متخيّل، وجدت فيه وسائل الإعلام مصداقًا لما كانت تظنّه من زمنٍ بعيدٍ، أو ربّما اعتاد بعضها على ترديده بين فترةٍ وأخرى.

ولم يكن ذلك كلّ شيء، فحتّى التغطية المتوقّعة لوسائل الإعلام الأميركية لمرحلة القتال أثناء الغزو، تضمن تكريسًا لصورٍ قائمةٍ، مثل: الجندي العراقي الجبان مقابلَ الأميركي الشجاع، وعلى طريقة هوليوود، جرى تقديم عملية "إنقاذ" أسيرة الحرب جيسيكا لينش، مستندةً على ذات المفاهيم والقيم التي طالما قدّمتها السينما الأميركية للجنود العرب والمسلمين، أو حتّى لشعوبٍ أخرى في أميركا اللاتينية بصورةٍ خاصّةٍ.

وهكذا فجميع الصور التلفزيونية التي كانت جزءًا أساسيًا من عملية الغزو، كانت تتوافق، إمّا مع الصور النمطية السائدة، أو مع الأنماط الدعائية التي سوّقتها إدارة بوش ضدّ العراق ونظام حكم الرئيس الراحل صدّام حسين، فمن جانبٍ كان هناك خزين الصفات السلبية المقولبة التي يُتوقّع أنْ يتّصف بها العراقيون، والتي لن تحتاج لكثير عناءٍ لتسويقها وتقديمها أسبابًا مشروعةً للقتل (الجبن، البدائية، الوحشية، ... إلخ)، ومن جانبٍ آخر كانت هناك القوالب الدعائية التي قدّمتها الإدارة الأميركية على أنّها حقائقُ مطلقةٌ لتلعب بصورةٍ مباشرةٍ على وتر غريزة الانتقام عند

مسودة

---

[١٣] بول بريمر، **عام قضيته في العراق**، ترجمة عمر الأيوبي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٦)، ص٢٣.

[١٤] المصدر السابق، الصفحة نفسها.

الأميركيّين (علاقة العراق بتنظيم القاعدة)، وعلى غريزة الخوف (امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل).

لقد افتُعلت قصّةُ أسلحة الدمار الشامل، بعد أنْ استُنفَد موضوع العلاقة مع القاعدة أغراضه في توجيه البوصلة نحو العراق كهدفٍ محتملٍ بعد أفغانستان، ومع صعوبة إيجاد أدلّةٍ تقنع الرأي العامّ الأميركي بقصّة القاعدة، فإنّ قصّة أسلحة الدار الشامل، بدت أكثرَ مرونةً لأنّها ما كانت قابلةً للتدليل على صدقها أو على كذبها، كانت مجرّد إشاعةٍ دعائيةٍ يمكن تكريسها بالتكرار. وبالاستفادة من سوء علاقة العراق آنذاك مع الغرب، لكنّ المهمّ في القدرة على تسويقها وكبت أيّ صوتٍ أو رأيٍ يشكّك فيها، هو تلك القاعدة العريضة من القوالب الذهنية التي طالما قدّمت العرب والمسلمين، بوصفهم أناسًا مهيّئين لمهاجمة الحضارة الغربية بالأسلحة الفتّاكة، وبعد أنْ وضعتهم الدعاية الغربية في قلب حملة "الحرب ضد الإرهاب"، التي جاءت بديلًا مناسبًا للحرب ضدّ الشيوعية.[١٥]

والحقيقة أنّ (انحياز) وسائل الإعلام الأميركية، لم يكن بحدّ ذاته أمرًا غير متوقّعٍ، إذ ليس من المستغرَب أنْ يجري تسخير هذه الوسائل لخدمة جهد الحرب، وهو ما نظر إليه بعض الأميركيّين على أنّه واجبٌ وطنيٌّ، ورآه بعضٌ آخرُ خروجًا صريحًا على القيم المهنية والأخلاقية، ولا سيما مع خضوع وسائل الإعلام لإملاءات الحكومة الأميركية ومؤسّسات الرقابة العسكرية مقابل حجبها للرأي المعارض للحرب إلى درجة تخوينه[١٦]، لكنّ ما يعنينا هنا، هو النسق الدعائي الذي تجاوز تسويق فكرة الحرب لأسقاط النظام إلى الحشد النفسي لقتل العراقيّين بطريقةٍ تنسجم والنظرة الدونية العنصرية التي جرى استدعاؤها أو تعزيزها خلال حملة التحضير للحرب ومواكبة عملياتها.

---

[١٥] سميح فرسون، **جذور الحملة الأميركية لمناهضة الإرهاب، العرب والعالم بعد ١١ أيلول/سبتمبر** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢)، ص١٩٦-١٩٧.

[١٦] راجع بهذا الخصوص: شيلدون رامبتون وجون ستوبر، **أسلحة الخداع الشامل، استخدام الدعاية في حرب بوش على العراق**، (بيروت الدار العربية للعلوم ، ٢٠٠٤)، ص ص١٥٧-١٦٨.

مسودة

ويختزل أحد مقدّمي البرامج في محطّةٍ أميركيةٍ[١٧] هذا الأمر حينما قال في برنامجه عشية غزو العراق : "نحتاج الآن لبثّ الأفكار العنصرية الشائعة حول عدوّنا لكي نشجّع جنودنا على قتل العدو"[١٨]، ومثل هذا الهدف تجسّد في واقع الأمر بالقدر الكبير من الاستهتار بأرواح العراقيّين، أو بكرامتهم، واستسهال القتل والتعذيب ناهيك عن حالات السرقة التي كان تجري على يد جنودٍ أميركيّين خلال عمليات تفتيش المنازل أو الأفراد، فالعراقيّون عند هؤلاء الجنود هم مجموعةٌ من اللصوص والقتلة البدائيّين، كما تصورهم تلك (الأفكار العنصرية الشائعة)، وبالتالي فقتلهم وإهانتهم وتعذيبهم وسرقتهم أمرٌ مشروعٌ.

وسبق الغزوَ أيضًا تكريسُ مفهوم "المجتمع العراقي المنقسم"، بين شيعةٍ وسنّةٍ وأكرادٍ، وهي فكرةٌ جرى الارتكاز عليها عنصرًا دعائيًا ضدّ العراق، منذ أوائل تسعينيات القرن الماضي، حينما بدأت الولايات المتّحدة دعمها لشخصياتٍ عراقية[١٩] قدّمت نفسها على أنّها قادرةٌ على إذكاء ثورةٍ شعبيةٍ أو تدبير انقلابٍ عسكريٍ ضدّ الرئيس صدّام حسين، وهذه الشخصيات كانت أحد المصادر الأساسية التي سوّقت مفهوم الانقسام المجتمعي في العراق، بوصفه ركيزةً دعائيةً لمواجهة نظام صدّام حسين الذي جرى تقديمه آنذاك على أنّه (نظامٌ سنيٌ يضطهد الشيعة

---

١٧ مقدم البرامج هو مايكل سافاج، الذي أضيف إلى طاقم شبكة إم إس إن بي سي في غمرة التحضير للحرب على العراق، مقابل ألغاء برامج لمقدمين محسوبين على التيار الليبرالي المعارض للحرب.

١٨ شيلتون وستوبر، المرجع السابق، ص١٦٥.

١٩ من بين أبرز هذه الشخصيات أحمد الجلبي الذي بدأ مشواره للتواصل مع الأميركيين بشكل فعال بعد حرب عام ١٩٩١، وقدم منذ ذلك الحين عدة خطط لإدارتي كلنتون وبوش للإطاحة بنظام الرئيس صدام حسين ، فشلت جميعها، وحصل منهما على عشرات الملايين من الدولارات لدعم تنظيمه (المؤتمر الوطني العراقي)، وقد أسهم الجلبي في ترويج فكرة (العراق المنقسم) التي لاقت استجابة الأميركيين بوصفها ركيزة دعائية مناسبة ضد صدام حسين، وشاركه في ذلك اكاديميون عراقيون وعرب مغتربون من أبرزهم كنعان مكية الأستاذ في جامعة كاليفورنيا، وبعد الاحتلال كان الجلبي (العلماني) أول من دعا للطائفية السياسية في العراق، فأسس في صيف ٢٠٠٣(البيت الشيعي)، الذي ضم الأحزاب الدينية الشيعية، وكان ذلك بداية ما أطلق عليه بالمحاصصة السياسية وشجع على ظهور التطرف العرقي والطائفي. راجع بهذا الخصوص: سيمور هيرش، **القيادة الأميركية العمياء، الطريق من ١١ أيلول إلى سجن أبو غريب**، ترجمة: مركز التعريب والترجمة، (بيروت: الدار العربية للعلوم ، ٢٠٠٥)، ص١٥٧-١٧٠.

والأكراد)، ثم ما لبثت هذه الركيزة الدعائية أنْ تحوّلت إلى نموذجٍ مقولبٍ للعراق، تحكّم لاحقًا بطريقة إدارة سلطة الاحتلال لهذا البلد.

وعلى الرغم من أنّ " التنوّع الإثني والديني في العراق الحديث ليس استثناءً، لا بالمقاييس الأوروبية ولا بالقياس إلى دول جواره العربية والإسلامية"[٢٠])، فإنّ هذا التنوّع نُظِرَ إليه بانتظامٍ خلال العقدين الأخيرين على أنّه انقسامٌ مجتمعيٌ يتضمّن اضطهاد "الأقلية السنية للأكراد وللأغلبية الشيعية" وهو منطلَقٌ دعائيٌ لم يتوقّف دوره على خدمة أغراض الحرب النفسية ضدّ العراق خلال التسعينيات وعشية الغزو، لكنّه امتد ليصبح نمطًا مقولبًا، يرسم إلى حدٍّ كبيرٍ طريقة نظرة الرأي العامّ الغربي للعراق على أنّه "خليطٌ من الشعوب والطوائف المنقسمة على نفسها"[٢١].

وقد كانت طريقة إدارة سلطة الاحتلال للعراق بعد الغزو مستندةً لهذا النمط المقولب، بغضّ النظر عمّا إذا كان ذلك اقتناعًا وتسليمًا به كقالبٍ ذهنيٍ ثابت أو سلوكًا مقصودًا لتكريسه واقعًا اجتماعيًا جديدًا في العراق لتحقيق أغراضٍ سياسيةٍ وإستراتيجية. وقد استند مجمل الخطاب السياسي لسلطة الاحتلال وللمسؤولين الأميركيّين و قراراتهم على مبدأ الانقسام المجتمعي في العراق بوصفه حقيقةً تاريخيةً مطلقةً ونهائيةً، بما في ذلك توزيع السلطة والنفوذ وصولًا إلى مشروع الفيدرالية في الدستور العراقي و مشاريع تقسيم العراق التي ظهرت في مراحلَ مختلفةٍ.

مسودة

[٢٠] بشير موسى نافع، **العراق.. سياقات الوحدة والانقسام** (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦)، ص١٨٧.

[٢١] المصدر السابق، ص٩.